محددات الموقف النقدي عند عبد الملك مرتاض

Determinants of the critical position of Abdul-Malik Murtad

طالبة الدكتوراه/ عمرة مروى

أ.د/مسعود وقاد

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة الشهيد حمّة لخضر–الوادي (الجزائر)

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده

amra-maroi@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2020/04/27 تاريخ القبول: 2020/08/26

ملخص:

يعد الجدل النقدي الذي حفلت به الساحة الأدبية نقلة في نهضة النقد الحديث، لما كان له من أهمية في بناء النصوص وتطويرها من خلال العمل على تحديد المصطلحات والتجديد في المناهج وعلمنة الآليات البحثية، ومن بين الأسماء اللامعة في فضاء النقد الحديث عبد الملك مرتاض أحد أهم أركان المشهد النقدي الجزائري، ونخلة جذورها في أعماق التراث وفرعها ممتد إلى عنان الحداثة.

ولقد عملنا في هذه المقالة على تقصي أهم المحطات التي ميزت تجربته الإبداعية، خاصة الجانب النقدي لأنه يعد بصمة واضحة المعالم في هذا الفضاء، وقد عرجنا على عناوين نراها مهمة وهي بمثابة المفاتيح التي تفتح بها غرفة الفكر المرتاضية، فالقلق المعرفي واللامنهج والتراث والنص كلها محطات أساسية تستوجب الاستراحة عندها لمواصلة السعي، ومن هنا جاءت دراستنا البحثية الموسومة بـ" محددات الموقف النقدي عند عبد الملك مرتاض".

الكلمات المفتاحية :

محددات؛ الموقف النقدي؛ القلق المعرفي؛ اللامنهج؛ التجربة النقدية؛ عبد الملك مرتاض .

Abstract

Literary criticism is a feature of the modern era because of its importance in building and developing texts by working to define terms and innovation in the curriculum and secularization of research methods. Among the brilliant names in the domain of criticism, Abdul- Malik Murtad, who is considered a prominent person extending his criticism and work we can find Abdel Malik Murtadh who is tall and tall palm and tree whose roots in the depths of heritage and its branches extending to modernity.

we have worked on this article to investigate the most important elements that distinguished his creative experience, especially the critical aspect since it is well- defined touch. We shed some light on necessary title that is considered keys , which help us to open the Murtadhs thinking aspects. cognitive anxiety , curriculum , heritage text are essential parts that need to be emphasized in order to achieve this research . Thus , our research study came based on these basics , which is Determinants of the critical position of Abdul-Malik Murtad

Key words: Determinants; critical position; cognitive anxiety, extracurricular, critical experience, Abdul Malik Murtadh**.**

مقدمة :

يتحمس أكثر النقاد إلى منهج بعينه ويتخذون منه مرتكزا لدراسة الأعمال الأدبية، وثمة من يُعرف بلون من ألوان النقد ويظل مداوما عليه لا يحيد عنه خطوة واحدة، ونلتمس ذلك عند طه حسين خاصة في بداياته العلمية إذ بدأ متأثرا بديكارت،ومن خلال النزعة الداعية للشك في كل شيء نجده عمد للتشكيك في النصوص الأدبية والدينية من خلال كتابه "**في الشعر الجاهلي**" مما دفع بالمازني لكاتبة مقالة ساخرة يشكك فيها في وجود طه نفسه وهي واحدة من طرائفه، بالإضافة إلى أنّ العقاد رحمه اللّه أنتهج المنهج النفسي الذي استطاع بعد تطبيقه أن يُخرج للناس دررا تتلألأ وألماس تلمع، ودراسته لابن الرومي خير دليل، ومن هؤلاء النقاد الذين يشار إليهم بالبنان نظير الجهود المبذولة للارتقاء بالنقد العربي انطلاقا من التراث تعريجا على الحداثة بكل تجلياتها، نجد جماعة واضحة المعالم جلية التجربة مشرقة الأسلوب أمثال : **جهاد فاضل و شوقي ضيف وفيصل الأحمر ويوسف وغليسي و عبدالملك مرتاض** والقائمة تطول ولا تقصر. ويعد عبد الملك مرتاض واحد من أهم الأسماء بل بالإمكان القول أنه

صار أيقونة وذروة من الذرى وقمة شاهقة في مجال الإبداع النقدي، والحق أنّ التكوين الأولي لأي مضطلع باللغة يكون له الأثر مع لاحق الأيام والسنوات، وينطبق القول على ناقدنا الجهبذ إذ أنه تعلم بداية على يدي والده علوم اللغة وتدارس معا القرآن الكريم، مما جعل لغته متينة ناصعة البياض محكمة البناء، وقد كانت بدايته العلمية النقدية مع التراث مما جعله يقدم أطروحة الماجستير في لون لم يسبقه إليه أكثر المنشغلين على النقد الأدبي، ومن ثمة جاء عنوان أطروحته " فن المقامات " إضافة جديدة للمكتبات العربية ومكسبا للقارئ، كما أنه اشتغل على التراث انطلاقا من الموروث الشعبي كالأمثال والألغاز، ويذهب جماعة من النقاد إلى القول بأن مرتاض تزحزح عن النقد القديم إلى النقد الحديث انطلاقا من كتابه "**النص الأدبي : من أين ؟وإلى أين ؟** " إلا أنّ ثمة من يعتقد بل يجزم بعكس ذلك والشاهد قول مرتاض نفسه إذ صرح قائلا " انزلقتُ إلى المنهج الحديث من خلال تعامُلي مع النص الشعبي، فكان أول عمل تجْريبي قمتُ به في التعامل مع النص هو كتابي " الأمثال الشعبية الجزائرية " ... ثم " الألغاز الشعبية الجزائرية " ..."[1]

ونفهم من هذا القول أنّ الدراسات السابقة ونعني بها التي سبقت كتابيه " **الأمثال الشعبية الجزائرية** " و " **الألغاز الشعبية الجزائرية** " ما هي إلا إرهاصات للتحول في المسار النقدي، ولعلنا لا نخطئ القول إذا ما أشرنا إلى أنّ المرحلة التي انتسب فيها إلى جامعة السربون كانت انطلاقة حقيقية لانفتاحه على النقد العالمي، و هذا ما صرح به من خلال قوله " لما تسجّلت في السوربون تحت إشراف الأستاذ أندري ميكائيل كان لا مناص من تغيير جلدي،دون تغيير جوهري وهُويتي . فكانت سنة ست وسبعين ... الفترة الحاسمة في حياتي العلمية : بين التراث وجماله، وعمقه، وأصالته، ... وبين الحداثة بما فيها من ضَبابية وجمال الشكل وصرامة المنهج، ثم بما فيها خصوصا من القلق المعرفي" [2] .

مرتاض والقلق المعرفي :

وفي تأكيده على القلق المعرفي عمد مرتاض إلى تطبيق عديد المناهج لإجلاء غموض النص التراثي والحديث، ساعياً إلى إيجاد نظريات جديدة إذ يرى أنّ هذه المناهج تؤدي في الغالب " إلى إنتاج معرفة، بل ربما إلى إنتاج نظرية جديدة للمعرفة، على أنقاض ما فكّك ...من بناء المعرفة القديمة "[3] فالممارسة النقدية بالنسبة للناقد،لا ترتكز على منهج بعينه، إذ أنّ ذلك قد يقيد ويحدّ من حريته، بل قد يخطئ أو يجانب الصواب؛ فالمناهج كالنصوص منفتحة على عوامل متعددة، وما يصلح لقراءة النص الشعري قد لا ينطبق على نصوص نثرية أخرى إذ " إنّ التعددية المنهجية أصبحت تشيع الآن في بعض المدارس النقدية الغربية، ونرى أن لا حرج في

النهوض بتجارب جديدة تمضي في هذه السبيل بعد التُخمة التي مُني بها النقد من جرّاء ابتلاعه المذهب تلو المذهب، خصوصاً في هذا القرن أي القرن العشرين "[4] وحين نتبع التجربة النقدية المرتاضية، نجد أنه لا يدعو إلى شيء إلا و يعمد إلى تطبيقه، وهذا ما نلحظه في دراساته النقدية المتعددة والمتنوعة، مما دفع به إلى تهجين المناهج مع اعترافه بالمخاطر التي تحيق بالناقد إذ يتوجب عليه الانفتاح على علوم كثيرة "...إذ تتطلب من مُنجِزها المشاركة في كثير من العلوم ".[5] وقد كانت بدايات مرتاض متذبذة لأنه ليس من السهل الانتقال من النقد القديم إلى الحديث بالإضافة إلى أنه انطلق شكلانيا، وهذا ما نجده عند النّقاد القدامى المتأثرين بالشكلانية الروسية، إلاّ أنّه تدارك الأمر فعمد إلى ممارسة النقد كُلاً غير متجزئ وهذا ما دعا إليه" **ميخائيل باختين**" و" **بيير زيما** "وآخرون، والمطلع على تجربته يجد الكثير من التساؤلات التي تقدم للقارئ معرفة تنير ظلمات البحث العلمي.

وكمثال على الأسئلة التي يولدها القلق المعرفي والتي يطرحها ناقدنا عبد الملك مرتاض " هل اللغة هي النص أم النص هو اللغة؟ أم لا اللغة نص، ولا النص لغة ؟ ... فهل اللغة من أم النص أو النص هو أبو النص؟ أم لا واحد فيهما أن للآخر ولا أخذ منهما ابن له "[6] فهذه التساؤلات وأمثالها لا تمر دون إجابة معرفية من لدنه " فاللغة تتلاعب بنفسها مع ألفاظها وهي تعبر عن أدق الدقائق،وأنبل العواطف، وأدق الهواجس،وألطف الوساوس ... لوما النص الذي هو ثمرة عطاء اللغة لما تعارف الناس وتفاهموا ولما بلغت الرسائل السماوية ولما نزلت الكتب على الرسل "[7] إذا فعبد الملك مرتاض يقر بأنّ اللغة والنص يغترفان من منبع واحد، تربطهما أواصر مودة، فهما مترابطان متكاملان، ومع ذلك وجب التنويه إلى أنّ اللغة يمكن أن تستغني عن النص، فالحكايات الشعبية بل حتى النصوص الدينية لم تكن في البداية مرتبطة بالنص، ويذهب مرتاض إلى أنّ جمالية اللغة تكون في داخلها، ومن خلالها فناء اللغة في اللغة تزداد هذه الأخيرة جمالية ورونقا إذ أنّ " تفاعل اللغة مع اللغة بل فناء اللغة في اللغة ... بل ميلاد اللغة من اللغة إنه المستحيل الذي لا ينتجز إلا باللغة "[8] وقد عمل مرتاض على التنقيب داخل النص، ومن ثمة الإجابة أو على الأقل محاولة طرح الأسئلة للوصول إلى نتائج ترضي القارئ والناقد، فنجده يقدم مجموعة منّ التساؤلات التي تشغل دارس الأدب، وتعمل على إثارة نزعته المعرفية للأجوبة فيقول مثلا " وما نراه من جهد بذلناه ليس إلا محاولة لإثارة الأسئلة وتحفيز القلق المعرفي والحمل على المسائلة أكثر من الطمع في الإجابة والتطلع إلى القول الفصل والاعتداد بالرأي...فلم يكن قط الجواب في قلق المعرفة وظلا للخطاب في حين أنّ المساءلة هي استقرار معرفي يحمل على الاستزادة من القراءة والتفكير "[9] والمعروف فلسفيًا أنّ الأجوبة لا تكون ذات أهمية بمقدار الأسئلة، إذ تعد التساؤلات هي الجوهر والمرتكز الذي تدور حوله الرحى

فالثيران التي تدور بالرحى في مكان واحد تعطي أنواع مختلفة من الطحين حسب الحبوب الموضوعة في الرحى.

والواقع أنّ الإرهاصات النقدية لعبد الملك مرتاض بدأت في مراحل مبكرة، ففي رسالة تخرجه لنيل شهادة الماجستير قدم أطروحة بعنوان " **فن المقامات في الأدب العربي** "، ومن خلال الانطباعية التي تتخلل متونه يلقي على مسامعنا قولا جللاً يشنف به السمع ويخطف به البصر، بل ويجعل الأعناق تشرئب إليه إذ يقول " وإني لسعيد أن أكون أول معالج لفن المقامات على هذه الصورة العامة الشاملة "[10] والمطلع على كتابه المذكور يلمح الذكاء النقدي لصاحبه، بالإضافة إلى لغته الراقية التي تأتي غالبا انطباعية انسيابية إنسانية، فإذا أصغينا إليه يحدثنا عن عمله النقدي تسمعه يقول " فإن أهداف فن المقامة ينبغي أن تكون مختلفة متباينة باختلاف الكتّاب الذين دبجوه، وباختلاف العصور التي كتب فيها هذا الفن الأدبي " [11] وهذا ما يدل على الذكاء النقدي لعبد الملك مرتاض، بالإضافة إلى اشتغاله الجيد من خلال تمحيص الأفكار التي يطرحها النقاد؛ فمثلا لا يقبل بآراء "**شوقي ضيف** " وهو الناقد والمؤرخ صاحب القدم الراسخ واليد الطولى فهو يرى " أنّ شوقي كان قد آمن إيمانا ثابتا بأن المقامات كلها كتبت للتعليم وانتهى الأمر "[12] إذ فهو يعترض على هذا الحكم، وهو ما يمكن أن نطلق على تسميته " نقد النقد" والمطلع على المقامات يجد حقًا أنها لم تكتب لغرض تعليمي وإنما لأغراض شتى ف " نحن حين ذهبنا إلى عدم تعليميتها جملة كما ذهب شوقي ضيف، لأننا وقفنا زمنا طويلا على دراستها وقراءتها، هذا ما وقعنا عليه من نصيّ الحصري و الشريشي،وكلاهما ينفي أن يكون مرماها تعليميا على النحو الذي يريد ضيف "[13] فإذا تتبعنا الملاحظات الوضاءة التي تشيع نور المعرفة في عقولنا، نفهم يقينا أنّ لفن المقامات عديد الأهداف من بينها " الطعن في الأدباء و الغض من مكانتهم في الأدب العربي،وهو ما يمكن أن نطلق عليه أيضا النقد الهدام، ونجد هذا الهدف متجليا في المقامة الجاحظية، فلم يكن البديع يرمي إلى نقد الجاحظ نقدا موضوعيا " [14] ومثل هذه الاعتراضات قليلة عند النقاد، فثمة من يتبع خطى " ابن النديم "أو "أبو هلال العسكري " وغيرهما دون أن يغير حرفا أو يحيد قيد أنملة، ولكن ناقدنا الفحل عبد الملك مرتاض ينطلق اعتدادا بنفسه يحلق فوق النصوص عاليا كنسر، يعلم يقينا أنّ بإمكانه القنص ولا يكتفي ناقدنا بالاعتراض وحده، وإنما يدحض القول بالدليل ليبرهن لقارئ وللنقاد أيضا إنّما حكمه لا يأتي عن هوى أو غاية في نفسه، إذ يوضح قائلا " إنما كان طعنا وثلبا وهدماً، لأن البديع كان يريد أن يجرد الجاحظ من كل فضل ويهدم سمعته الأدبية لهذه الأسباب الفاسدة "[15] فالقارئ الذي تقع بين يديه المقامات، ويقرأ عن الجاحظ يعتقد أنّ الرجل أقل شأنا، وحينما تقع النصوص النقدية المرتاضية بين يديه يوقن بما لا يدع مجالا للشك، بأن

الجاحظ أعلى وأجل مما قيل فيه في المقامات، ومن خلال الاطلاع على تجربته النقدية نلمس التواضع الذي يدفعه لقبول أسئلة القُراء، بل ويمنحهم المشروعية في الطرح لأنه يوقن بأن " أسئلة كثيرة مشروعة، من حق كل قارئ عادي وكل قارئ ناقدا أيضا أن يلقيها على نفسه أولا، ثم على صاحب هذه الدراسة ثانيا "[16] والمعروف أنّ أسئلة القراء كثيرة، ومن ثمة تتولد الإجابات بعد البحث و التنقيب في أمهات الكتب، مما يولد الأجوبة الملئ بثمار المعرفة، والمطلع على التجربة المرتاضية يخرج منها بقناعة مفادها الهوس بالأسئلة، فجميع مؤلفاته لا تكاد تخلو من الأسئلة القلقة التي يسبق بها القارئ،ليظل دائما متقدما بخطوة، ففي كتابه " **القصة الجزائرية المعاصرة** " تتعثر الخطى بمثل هذه التساؤلات والتي يريد من خلالها إضاءة المناطق المظلمة " ولكن لماذا وقفنا هذه الدراسة على خمسة قصاصين وسبع مجموعات قصصية فقط ؟ " [17] وهو لا يكتفي هنا بالطرح ليظل السؤال عالقا، وإنما يجلي الأمر ليستريح القارئ المعنى بالأجوبة " إنّ الأمر بالقياس إلينا هين يسير،فقد انطلق البحث أول الأمر من فكرة تتبع محور المضمون الاجتماعي في القصة الجزائرية المعاصرة "[18] فالدراسة النقدية عنده لا يهم إذا ما كانت ضخمة تحدث جعجعة أو ضجة تسير على رؤوس الأصابع،إذ يكفي فقط إثارة السؤال ليكون بمثابة اللبنة التي توضع لتأسيس البنيان وترصيصه،وفي جميع الحالات لا يغفل عن تزيين النص بالجماليات اللغوية التي تعلو بالنص وترتفع علو " فلتكن هذه الدراسة مجرد إثارة لسؤال .

ولتكن مجرد لبنة صغيرة توضع في صرح سيكون شامخ الأعمدة،شاسع الأركان،مرصوص البنيان فمن نجمع أمرنا وننطلق إلى تحقيق ذلك؟... " [19] والحق أنّ الأسئلة صارت علامة فارقة في حياة مرتاض، بل تكاد تكون هوسا فكريا لا تستقيم بحوثه الأكاديمية إلا حين تكون الأجوبة مقابلة لتلك الأسئلة.

التراث عند عبد الملك مرتاض :

استطاع الناقد والمفكر عبد الملك مرتاض من خلال الإطلاع والممارسة الوصول إلى قناعة، بأنّ التراث غني بالكثير من القيم و الأفكار، وبالتالي فقد دعا إلى الاهتمام بهذا الإرث، الذي وصل إلينا عبر العصور دون أن يغفل ربط الماضي بالحاضر،إذ يرى بأن الإخلاص والوفاء لهذا الأدب يتوجب علينا " أن نبحث في أمر ماضيه وننبش في النظريات التي قد تكون واكبته لنحاول تطويرها وتحديثها بناء على ما جد في سوق العصر من جديد وببعض ذلك يمكن أن نربط جيل الحاضر بالماضي " [20] ويرى "مرتاض" أنه من غير اللائق أن نعتقد بأنّ المعاصرين وحدهم أصحاب السبق في كثير من القضايا الأدبية والنقدية،فالسيميائية مثلا لها جذورها التاريخية في

تراثنا العربي،وهي ما كان يصطلح على تسميته بعلم العلامات إذا " من المكابرة الزعم بأن المعاصرين اليوم،وحدهم هم الذين اهتدوا السبيل إلى إشكالية القراءة السيميائية بكل إنجازاتها اللسانياتية وبتعدد حقول تأويلاتها المستكشفة والتي ليس لآفاقها حدود " [21]

ويذهب " مرتاض" إلى التساؤل بشأن التراث والحداثة، ولكن لا يعني هذا أنه يفتقد للأجوبة، وإنما سؤال العارف بالأجوبة،وحين يصادفنا سؤاله المتمثل في " ما موقفنا من الحداثة ؟ [...] ما موقفنا من التراث ؟ ". [22] فإننا نوقن أنّ ثمة أجوبة تشفي ما في الصدور فالمعروف أنه موسوعي في معارفه مدركاً لمحيطه الثقافي قادراً على الاستيعاب الفكري.

والحق أنه في طروحاته لا يميل كل الميل للحداثة ولا ينحني تماما أمام التراث،وإنما يذهب إلى التراث انطلاقا من مكتسباته الحداثوية رجوعًا إليها وتمحيصًا لكليهما، وهو يرى بأن جماعة النقاد " صنفان اثنان، صنف محدث مقلّد تقليدا أعمى،وصنف إتباعي مقلد للأجداد تقليدا أعمى وواضح أنّ الشر كل الشر في الحالين " [23] نفهم من هذا القول أن مرتاض يحبذ التوسط بين الأمرين، بمعنى احترام التراث ودراسته وفق المناهج الحديثة، وتصفيته من الشوائب بموضوعية دون المساس بالنص المقدس والمتمثل في القرآن الكريم، لأنّ التراث " أنشأته العقول النابغة . والعبقريات المبدعة. وهذا الضرب من التراث هو الذي نعدّه ثابت بل هو قابل كل القابلية للنقاش والإثراء والنقد والأخذ والرد "[24] ولكي يتجدد هذا التراث ويعود حيا متأنقا متألقا فإنه من الواجب علينا حسب مرتاض " إحياء هذا التراث. ولكن بقراءاته بإجراءات جديدة وأدوات من المنهج حداثية،لمحاولة ربط الحاضر بالماضي بالإمكان تأسيس نظرية نقدية قادمة على التواصل المعرفي"[25] والحق أنّ عبد الملك مرتاض كان ولا يزال يعمل إلى الغوص في أعماق بحار اللغة العربية بحثا عن الجواهر الكامنة في أعماقها، بالإضافة إلى اشتغاله الجيد على استخراج منابع المفردات التي تنم عن مدى فهمه لحقيقة التراث؛فمثلا نجد عنده جمع عصا يقابلها في الجمع المتعارف عليه العصي، ولكنها عند مرتاض تصير الأعصاء، وحين نعود لأمهات المراجع والمصادر نجد أنّ الرجل لا يعيش في المجال اللغوي وإنما يأتيك بما تعجز عنه الألسن، وإصرار مرتاض واستهانته في الدفاع عن التراث العربي، وتعلقه بجلبابه راجع في أساسه إلى تكوينه الأولي، فهو تلميذ والده وابن البيئة العربية الخالصة، ومن ثمة نجد بين كفيه دائما عرائض يبسط من خلالها سبب تمسكه بالأصيل من تراثنا، معترفا له بالأسبقية حتى وإن لم تكن أسبقية واضحة المعالم، وفي اعتقاده " أن كثيرا من النظريات النقدية الحديثة والحداثية معاً. نلقي لها جذورا وأصولا، أو على الأقل إرهاصات وإشارات في الفكر العربي القديم " [26] وبالتالي يظل مفكرنا وناقدنا علامة بارزة في مجاله النقدي، ويذهب

يوسف وغليسي إلى أن مرتاض " ناقدا غربي المنهج عربي الطريقة...حداثي المادة، تراثي الروح..."[27] وكما أشرنا سابقا بأن التكوين الأولي أعطى لمرتاض ركيزة صلبة، هيأته لمقابلة الحداثة بثقة وعزم دون الإحساس بالدونية، أو التعامل باستعلاء مما أضفى على دراساته منطقية يتقبلها العقل وترتاح إليه النفس .

عبدالملك مرتاض واللامنهج :

أحدث مرتاض حين دعا إلى استعمال اللامنهج في تحليل النصوص ودراستها نقديا خلافا بين النقاد،مما دفع بجماعة منهم إلى إخراجه من جمهرة النقدة ورأوا أنه " رجل مكثار مهذار يخوض في أي شيء ويتناول كل شيء دون أن يبلغ منالا من ذلك الشيء، وأنّ له ذلك وهو الموسوعي في عصر التخصص ... " [28] أنّ النصوص لا يمكن التعامل معها خارج المناهج وبالتالي فإن دعوة مرتاض تحتاج إلى إجلاء الغموض وتنوير القارئ والناقد معا، فما الذي قصده مرتاض بقوله " إنّ اللامنهج في تشريح النص الأدبي هو المنهج " [29] والحق أنّ هذه المقولة يكتنفها الكثير من الغموض إذ كيف نسمي اللامنهج منهجا؟... ثمة تناقض بلا شك ولكن المتفحص والمدقق في هذه العبارة ومن خلال متابعته الممارسة النقدية لمرتاض يعلم يقينا أنّ المقصود هو الولوج إلى العوالم النصية دون التزود بمنهج ثابت مسبقا إذ لابد من قراءة المتن ثم الشروع في نقده حسب ما يحتاج إليه من مناهج مما يدل على أنّ " اللامنهج في أبسط صوره – يعني الدخول المحايد إلى النص مجردا من الآليات المنهجية الصارمة "[30] فالناقد في كثير من الأحايين يجد نفسه مضطرا لاستعمال أكثر من منهج لتحليل وتشريح نص ما، وهذا ما سماه مرتاض بالتركيب، وهو يختلف في مفهومه عن التكامل ويرى مرتاض " أن كل مذهب نقدي هو أصلا، يتركب من جملة مذاهب، كما أنّ فلسفة لا ينبغي لها أن تنهض إلا على فلسفات سبقتها " [31] ويواصل مرتاض إصراره على هذه الفرضية بالذات والقائمة على عدم اكتفاء المنهج بذاته فهو في حاجة لمن يعضده ويشد من عزمه ويؤازره وقت الحاجة .

إذ يرى أنه " يبدو من المكابرة الإدعاء بأنّ علما ما بمفرده قادر على الاستقلال بذاته، والاجتزاء بأدواته الإجرائية وجهازه الاصطلاحي وأسسه المنهجية الذاتية وحدها " [32] ولأنّ عبد الملك مرتاض اضطلع بالنقد واشتغل على تحليل النصوص وتفكيكها وقراءة علاماتها، فقد تبين له من خلال الممارسة أنّ الالتزام بمنهج على أساس أنه كاف للولوج من خلاله للنص بعد تعصبا غير محمود العواقب، مجانبا للدقة العلمية ف " التعصب سلوك غير علمي، ولا أخلاقي أيضا، التمسك بتقنيات منهج واحد على أساس أنه وحده، ولا منهج آخر معه جدير أن يتبع " [33] لذلك نجد أنّ ناقدنا عوّل في دراساته وتعامله مع النصوص الأدبية على أكثر من منهج، حتى ولو كان في نص واحد وهذا ما أطلق على تسميته ب " **التركيب** " على أنّه عمل على الإشارة إلى

المناهج التي يستعين بها، حتى لا يلتبس الأمر على القارئ وبالتالي فقد توجه مرتاض " إلى التركيب المنهجي وذلك لدى قراءة النص الأدبي مع الاجتهاد في تجنيس التركيبات المنهجية حتى لا يقع السقوط في التلفيقية "[34] وللأمانة العلمية يقر مرتاض بأنّ مصطلح اللامنهج،تعلّمه من أستاذه الذي أشرف على رسالته الخاصة بالدكتوراه " وذلك بعدما سأله عن منهج الدراسة، فأجاب الأستاذ الفرنسي (بلغة عربية) : المنهج هو اللامنهج "[35] فمرتاض لا يؤمن بالسلطة المطلقة لمنهج واحد وإنما يرى بأنّ سلطة النص تحدّ من حرية المنهج وبالتالي كلما أعدنا قراءة النصوص يتفتق الجديد وتبين الخفايا وينجلي الغموض " ومن هنا يأتي حرص الناقد على إخضاع المنهج لخصوصية النص والتضحية بشيء من سلطة المنهج والتقليل من درجة نفوذه واستقطابه في سبيل حياة النص وعطائيته " [36] وإذا أجبنا أنّ الأسباب التي دعت مرتاض بعد التزامه المنهج لسنوات طويلة إلى التخلي عن الصرامة المنهجية ومحاولة إتاحة الفرصة للنص ليفرض وجوده ويعبر عن كينونته فإننا نلمس الجواب من قوله " يعني وضع مناويل نسيج عليها في منهجنا الذي به نتناول نصا أدبيا ما، فلا تحيد عنه أبدا "[37] وهو ما يعني أن عبد الملك مرتاض يرفض التقليد الذي يسميه بآلة النسيج التقليدية والتي تسمى "النول " وهي في العادة مهيأة لصناعة الصوف وتحويله إلى أفرشة تكون في الغالب على نفس الشاكلة وما يضاف إليها من تعديلات تكون خارج النول.

إذا فاللامنهج يعد عند مرتاض حرية تمنح للناقد والقارئ،من أجل تحصيل وتجميع ثمار النص بعيدا عن القيود والحراسة المشددة ومن ثمة الابتعاد عن البلادة والتفكير القاصر مما يحد من إبداعنا لأننا " بخضوعنا المتبلد القاصر لمثل هذا المنهج المفترضة صرامته، سنسلب حريتنا منا بأيدينا، وسنتقيد بقيود تكبلنا، فلا نبدع في هذه القراءة "[38]

وفي الأخير نشير إلى أنّ " الحضور اللامنهجي على مستوى الاستخدام المصطلحاتي، فلا يحتاج إظهاره إلى عناء كبير، لأنّ مرتاض يجيد التصرف في محتويات الجهاز الاصطلاحي بطرق إجرائية تجعله يبدع في التعديل والتأويل " [39] والصراحة أننا أطلنا الحديث أو الخوض في " اللامنهج "عند مرتاض، لأنه يعد نقطة مركزية لا يمكن تجاوزها، لما تمثله من أهمية في حياته النقدية وثورته على المناهج التي تجدد دوما.

عبد الملك مرتاض والنص الأدبي :

انطلاقا من دعوة المفكر الفرنسي رولان بارت موت المؤلف، يتساءل عبد الملك مرتاض من خلال كتاباته النقدية الخاصة بالنص " ألم يؤن أن يعتقد كل من يعنيه أمر الأدب بمفهومه المعاصر أنّ النص الأدبي ذو وجود شرعي مستقل عن مؤلفه إلى حد بعيد على الرغم من أنه ينتمي إليه ؟..." [40] وللتدليل على أنّ النص لا يكون بالضرورة مرتبطا بمبدعه يعمد

مرتاض إلى تقديم الحجج والبراهين ليثبت أحقية فرضياته النقدية، فيقول موضحا " النص الأدبي بالقياس إلى مبدعه، يشبه النطفة التي تقذف في الرحم فينشأ عنها وجود بيولوجي، ولكن الوليد على شرعيته البيولوجية والوراثية لا يحمل بالضرورة كل خصائص أبيه النفسية والجسدية والفكرية ..."[41] والحق أنّ هذه المقولة بليغة أشد البلاغة، قوية قادرة على الوقوف في وجه رياح الرفض والاختلاف الفكري، فالوليد لا يكون دائما نسخة مطابقة للأصل إلا نادرا .

ويقرّ مرتاض بأنّ الدعوة إلى فصل المؤلف عن نصه المخلوق، تعود في الأصل إلى بول فاليري " والذي رأى أنه من العبث الاشتغال بالمبدع وبذلك تعد ثورة نقدية على مدرسة (هيبولييت تين) التي تجتر قاعدتها الثلاثية المستندة إلى ضرورة العناية بوسط (المبدع وزمانه وعرقه) "[42] ويواصل مرتاض فكرته الداعية إلى التعامل مع النص منفردا دون النظر في سيرة صاحبه يقينا منه بأن النص " عالم ضخم متشعب متشابك معقد، ورسالة مبدعه تنتهي لدى الفراغ من تدبيجه فهو لا يرافقه إلا في لحظة المخاض،أو لحظة الصفر كما يطلق عليها رولان بارط"[43].

ويعد النص بالنسبة للناقد والمفكر عبد الملك مرتاض حجرة مغلقة الأبواب لا يمكن الولوج إلى عوالمها السحرية من داخلها، علما أنّ مفتاحها يوجد في العمق، ولذا يتوجب على الدارس التعامل بحذر إلى أن يهتدي إلى طريقة يصل بها للمفتاح الذي يتيح له آلية التعامل مع المولود الجديد المسمى نصا أدبيا، وبالتالي فإنّ النص يعد " حجرة مغلقة ومفتاحها بداخلها ولا يمكن فتح هذه الحجرة حتى نتمكن بالإمساك بالمفتاح لنستطيع فتح الباب، ولنشاهد ما بداخل الحجرة السحرية من عجائب " [44] وبالتالي يمكن أن " نحوّر من هذا المثال الجزء المتعلق بالمفتاح تحويراً طفيفاً لكي نقول إنّ المفتاح موضوع في ثقب الباب في متناول الفاتح الذي ينوي الفتح "[45] ويحذر مرتاض من التعامل مع النص بأدوات قديمة، أو انطلاقا من فكرة مسبقة وهو ما يعني إلغاء أي خلفية محملة بأيديولوجيا فكرية قد تعمل على تشويه النص أو الحد من فهمه بشكل واضح وجلي ومن هنا فإنه يتحتم علينا " أن نمضي إلى هذا النص الأدبي ولا سلاح لنا إلا الفكر الطليق والرأي الطيع، والثقافة العلمية والمنهج الحديث الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة "[46] ولا يرى مرتاض أي ضير أو ضرر في تناول النص نقديا من طرف جماعة من النقاد، لأنّ ذلك ومن وجهة نظره لا يلحق عيبا ولا يورث سقما، وعليه فإن " النص الأدبي الواحد قد يتناوله طائفة من الدارسين جملة واحدة دون أن يكون ذلك ممتنعا أو مستنكرا " [47] ونذهب إلى القول بأنّ "المرجع في هذه الدّراسات هو زاوية النّظر التي من خلالها نسلّط الأضواء على النص الذي نحن بصدد مدارسته "[48] وبما أنّ الناقد هو قارئ في الأساس، فإن قراءته النقدية وتحليلاته تظل نسبية قابلة للنقاش والتغيير والتطوير، وليس ثمة من بإمكانه الإدعاء

بأنّ ما توصل إليه نقديا يعد آخر الفتوحات، فالنص لا يكون نصا إلا بقراءات متجددة ومفاهيم مختلفة " وما يستكشفه يظل في رأينا مجرد صورة واحدة من صور القراءة ولا يجوز له أن يتخذ صفة الحقيقة النقدية، التي من العسير التسليم بها "[49]

ويرى مرتاض أنّ التعامل مع النص، انطلاقا من وجهات نقدية خاصة بمنَظر بعينه، يجب أن لا تخرج عمّا يدعو إليه هذا الأخير، لأنّ الدارس الذي ينطلق من أفكار " جاكبسون " والذي ينتمي من خلال أطروحاته للشكلانية، وبالتالي فلا مناص من التعامل مع النص خارجيا، ونقصد به السطح والسبب أن " المدرسة التي يروج لها جاكبسون هي أصلا شكلانية. فلا ينبغي لنا أن نفهم هذه الأدبية التي يفترض أن لا تتوافر في أي نص أدبي إلا على أساس كونها شكلية أيضا... "[50] ونفهم من هذه المقولة أن الأمر ينطبق على المناهج والمفاهيم الداعية لتحليل النص على طريقة ما، فالناقد أو القارئ الذكي الذي يضطلع بمهمة النقد والتحليل والتشريح،عليه أن يعي تماما آليات المنهج الذي يتعامل معه، والمعروف أنّ المناهج هي آليات يسعى من خلالها الناقد للوصول إلى جوهر النظرية التي تعد اللولب الذي تدور حوله العجلة.

والمهمة الأساسية التي تتوجب على الناقد هي أن يبذل جهدا لاستكناه النص والإطلاع على خفاياه، ولا يتأتى ذلك إلا بالممارسة والدربة ومن هنا يمكن الحزم بأن الناقد " يجوب مجاهل النص الشاسعة ويطوف في آفاقها الواسعة،حتى تتعدد أمامه الزوايا وتتشعب له الدروب وتتضح في ذهنه الرؤى "[51] ويرى فيصل الأحمر " النص يعرض نفسه بنفسه،وهو كائن متراكم وبنية معقّدة متشعّبة كلّما غاص فيها الدّارس ازدادت الأوجه التي يقدّمها النص له تعدّداً وكثرةً... "[52] والحق أنّ مقولات متعددة في هذا المضمار،عمل مرتاض بواسطتها على الارتقاء بالنص وحياديته عن مؤلفه حاثا النّاقد على الدخول في أعماق النصوص لاستخراج الكوامن المرجانية واللآلئ الإبداعية وهو في أفكاره النقدية يستند إلى الجانب النظري والتطبيق معا، فقد عرفته ساحة الأدب واحد من خيرة النقاد الذين تعاملوا مع النصوص الأدبية والروائية.

خاتمة:

نقرّ بأن الحديث عن التجربة المرتاضية في هذه الصفحات المعدودة تعد ضربا من الخيال لما يمثله هذا الفطحل من ممارسات وإنتاجات تزيد عن السبعين مؤلفا مفتوحة على جميع الأجناس الأدبية كالنقد والرواية والقصة والشعر.

والحق أن الإشكال كامن في عدم التزامه بمنهج معين مما يدفع بالمتلقي تحديدا والناقد خصيصا للإطلاع على المناهج برمتها والرجوع للتراث العربي، إذ يعد نقطة محورية في الحياة

الإبداعية لهذا الناقد والمبدع الجزائري المتفرد في نتاجه والمعزز بالثقة المستمدة من تمكنه في مجالات شتى، فبدلا من أن يتخصص في منهج واحد ضرب بعصاه في كل اتجاه فأينما وقعت كان لقلمه مداد حبر يسوّد به بياض الورق؛انطلاقا من اللامنهج المصحوب بالقلق المعرفي استطاع أن يزود المكتبات بذخائر تعد زادا للقارئ وزادا للباحث المتعطش للمعرفة التي تجمع ولا تقصي، والمعروف أن مرتاضا بدأ باحثا عن المعرفة متزودا بالأسئلة الناتجة عن قلقه المعرفي مما أضفى على أعماله سمة التجديد والإبداع والسعي لتقديم الأجوبة،وقد أفاده اللامنهج في التطرق للعديد من النصوص لإجلاء غموضها وإظهارها على شكلها الذي ينبغي أن تكون عليه، ولو شئنا أن نجد تسمية تختصر تجربة مرتاض في مجال الإبداع النقدي لاكتفينا بالقول **"مرتاض اللامنهج"** على أن القول لا يلغي ملكاته المتعددة في أجناس أخرى، وأكثر ما يميزه في هذا المجال النقدي تعامله مع النص بطريقة جاذبة إذ يعمد في الغالب إلى الإحاطة به من كل جانب وإلقاء القبض على كل شاردة، حتى أن الدارس من بعده قد لا يجد قولا يقال بعد أن قال " جهينة ".

ومن خلال الإطلاع على التجربة المرتاضية نستطيع أن نجزم بأنه صار مدرسة قائمة بذاتها، يستطيع الوالج إليها أن يبصر من شرفاتها البنايات الشاهقة المشيدة في الفكر النقدي الغربي، فالرجل والحق يقال ملّم بكل جديد، وقد ساعده في ذلك إتقانه اللغة الأجنبية وبالتالي متابعة الجديد أينما حل ومطاردته أينما ارتحل.

والحق أن أقلاما نقدية بدأت الآن ترفع الراية المرتاضية معترفة له بالفضل والسبق ومن حواريه يبرز يوسف وغليسي عاليا في سماء الفكر المرتاضي، وإننا لنأمل أن تمتد الأيدي إلى إبداعاته تتناولها بالموضوعية فتخرج منها العوسج والعسجد.

الهوامش :

[1]/ جهاد فاضل :أسئلة النقد حوارات مع النقاد العرب، الدار العربية للكتاب، تونس، دت،ص 217 .

[2]/ محمد هيشور : المشكلة المنهجية في الأدب الإسلامي،مجلة المشكاة، ع18، ربيع 1994، ص118.

[3] /عبد الملك مرتاض:التحليل السيميائي للخطاب الشعري [تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي]،دار الكتاب العربي، الجزائر، ط2001، ص 20.

[4]/ عبد الملك مرتاض :تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية،ط1995،ص 06.

[5]/ محمد مفتاح : في سيميائية الشعر القديم (دراسة نظرية وتطبيقية)،دار الثقافة،البيضاء، ط1، 1982، ص 05.

[6]/ عبد الملك مرتاض : نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، ط2 ،2010، ص ص 05،06.

[7]/ المرجع نفسه، ص ص 04،05.

[8]/ المرجع نفسه : ص 05 .

[9]/ المرجع نفسه، ص09.

[10]/ عبد الملك مرتاض :فن المقامات في الأدب العربي،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر ،ط1980 ، ص03.

[11]/ المرجع نفسه،ص 167.

[12]/ المرجع نفسه ،ص 169.

[13]/ المرجع نفسه، ص 180.

[14]/ المرجع نفسه، ص 181.

[15]/ المرجع نفسه، ص181.

[16]/ عبد الملك مرتاض : القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1990، ص09.

[17]/ المرجع نفسه،ص 12.

[18]/ المرجع نفسه،ص 12.

[19]/ المرجع نفسه،ص 12.

[20]/ عبد الملك مرتاض : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي " لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،دط، دت،ص 10.

[21]/ عبد الملك مرتاض:التحليل السيميائي للخطاب الشعري [تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي]، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط2001، ص 07.

[22]/ عبد الملك مرتاض : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي " لمحمد العيد،ص 09.

[23]/ عبد الملك مرتاض : ألف ليلة وليلة ، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط،1993، ص11.

[24]/ عبد الملك مرتاض : هل الحداثة فتنة؟ مجلة المنهل،مجلد 36، ع 516، يونيو 1994،ص 131.

[25]/ عبد الملك مرتاض: الكتابة من موقع العدم (مساءلات حول نظرية الكتابة)،دار الغرب للنشر والتوزيع،وهران، الجزائر،2003،ص07.

[26]/ عبد الملك مرتاض : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي : لمحمد العيد،ص28،26.

[27]/ يوسف وغليسي : الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، دار البشائر للنشر والاتصال،2002، ص08.

[28]/ المرجع نفسه، ص09.

[29]/ عبد الملك مرتاض : النص الأدبي من أين؟ وإلى أين،ص55.

[30]/ يوسف وغليسي : الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض،ص88.

[31]/ عبد الملك مرتاض : تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية مركبة لرواية زقاق المدق، الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية،ط،1995،ص07.

[32]/ عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب الشعري [تحليل بالأجزاء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي]، ص06.

[33]/ عبد الملك مرتاض : تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية مركبة لرواية زقاق المدق،ص 18.

[34]/ المرجع نفسه،ص06.

[35]/ يوسف وغليسي : عاشق الضاد قراءات في كتابات العلاّمة عبد الملك مرتاض ،دار جسور للنشر والتوزيع ، ط1، 2018،ص233.

[36]/ المرجع نفسه ،ص232.

[37]/ عبد الملك مرتاض : نظرية القراءة، دار الغرب،وهران، 2003، ص26.

[38]/ عبد الملك مرتاض : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي " ص27.

[39]/ يوسف وغليسي : عاشق الضاد قراءات في كتابات العلاّمة عبد الملك مرتاض ،ص243.

[40]/ عبد الملك مرتاض : النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟ ص41.

[41]/ المرجع نفسه،ص41.

[42]/ المرجع نفسه،ص46

[43]/ المرجع نفسه،ص42.

[44]/ عبد الملك مرتاض :دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي"،ص 33.

[45]/ فيصل الأحمر: قراءة في التجربة النقدية لدى عبد الملك مرتاض، مجلة الأثر، الجزائر،العدد11،السنة فيفري 2007،ص 172.

[46]/ عبد الملك مرتاض: النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟ ص53.

[47]/ عبد الملك مرتاض : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة : أين ليلاي " ص14.

[48]/ فيصل الأحمر: قراءة في التجربة النقدية لدى عبد الملك مرتاض، مجلة الأثر، الجزائر،العدد11،السنة فيفري 2007 ،ص 172.

[49]/ عبد الملك مرتاض : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة : أين ليلاي " ص14.

[50]/ المرجع نفسه،ص 16.

[51]/ عبد الملك مرتاض : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة : أين ليلاي " ص14.

[52]/ فيصل الأحمر: قراءة في التجربة النقدية لدى عبد الملك مرتاض، مجلة الأثر، الجزائر،العدد11،السنة فيفري 2007 ،ص 173.

المصادر والمراجع

جهاد فاضل. (دت). *أسئلة النقد حوارات مع النقاد العرب*. تونس: الدار العربية للكتاب.
عبد الملك مرتاض. (ط2001). *التحليل السيميائي للخطاب الشعري [تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي]*. الجزائر: دار الكتاب العربي.
عبد الملك مرتاض. (1993). *ألف ليلة وليلة ، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، دط.
عبد الملك مرتاض. (1990). *القصة الجزائرية المعاصرة*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، دط.
عبد الملك مرتاض. (2003). *الكتابة من موقع العدم (مساءلات حول نظرية الكتابة)*. وهران ، الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
عبد الملك مرتاض. *النص الأدبي من أين ؟وإلى أين؟*
عبد الملك مرتاض. (1995). *تحليل الخطاب السردي ، معالجة تفكيكية مركبة لرواية زقاق المدق*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
عبد الملك مرتاض. (ط1995). *تحليل الخطاب السردي*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
عبد الملك مرتاض. *تحليل الخطاب الشعري [تحليل بالأجزاء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي]*.
عبد الملك مرتاض. (دت). *دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي" لمحمد العيد*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ،دط.
عبد الملك مرتاض. (ط1980). *فن المقامات في الأدب العربي*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
عبد الملك مرتاض. (2003). *نظرية القراءة*. وهران: دار الغرب.
عبد الملك مرتاض. (ط2 ، 2010). *نظرية النص الأدبي*. الجزائر: دار هومة ، الجزائر.
عبد الملك مرتاض. (يونيو 1994). هل الحداثة فتنة ؟ *مجلة المنهل ،مجلد 36 ، ع 516* ، ص131.
فيصل الأحمر. (فيفري 2007). قراءة في التجربة النقدية لدى عبد الملك مرتاض. *مجلة الأثر ، الجزائر،العدد11* ، ص 172.
محمد مفتاح. (ط1 ، 1982). *في سيميائية الشعر القديم (دراسة نظرية وتطبيقية)*. البيضاء: دار الثقافة.
محمد هيشور. (ربيع 1994). المشكلة المنهجية في الأدب في الأدب الإسلامي. *مجلة المشكاة* ، ع18.
يوسف وغليسي. *الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض*.
يوسف وغليسي. (2002). *الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض*. دار البشائر للنشر والاتصال.
يوسف وغليسي. (ط1، 2018). *عاشق الضاد قراءات في كتابات العلاّمة عبد الملك مرتاض*. دار جسور للنشر والتوزيع ، ط1، 2018.